المبحث الثانى

المجىء عن دعوة وتوقع
والإتيان دون دعوة

المبحث الثانى

المجىء عن دعوة وتوقع .. والإتيان دون دعوة

يختلف الإتيـان عـن المجىء فى كونه لا يكون عن دعوة ، وإنما عن رغبـة وطواعية ، دون قهر أو إلزام ، أما المجىء فإنه يكون مطلوباً ، أو متوقعاً منتظراً بقرائن الأحوال والسياق .

وهذا الفرق يأتلف مع اختلافهما ، من حيث صعوبة المجىء وسهولة الإتيان ، والذى فصلنا القول فيه فى المبحث السابق ؛ إذ إن المجىء عن دعوة وانتظار يكون صعباً ، لما فيه من تبعة الطلب والتكليف ، ويكون دون دعوة سهلاً ،كما أن صعوبة المجىء لا تكون إلا مصحوبة بدواعيه ودوافعه .

وللقرآن الكريم لطائف كثيرة فى هذا الباب ، تتجلى عند إشراق النفس لتلقيها من شواهد الفعلين . من ذلك :

٢٢٤- قـوله تعـالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ، قَالُواْ هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ، وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

قولَه تعالى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ .. ﴾ أى رزقـوا إياه من غير أن يطلبوه ، أو ينتظروه ، فهم لا يعلمون به إلا بعد أن يؤتَى به إليهم ، كما لا يخطر لهم على بال ، لأنه من نوع لم يعهدوه .

قال البقاعى : ﴿ وأُتوا به ﴾ أى جىء (٢) لهم بهذا الجنس المرزوق لهم فى الدارين فى الجنة من غير تطلب وتشوّق (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٥ .

(٢) يظهر من قول البقاعى : « أى جىء به » الفرق بين الإعجاز القرآنى فى المجىء بالكلمة المناسبة « أتوا » وبين ما هو من كلام البشر ودونه فى درجة الفصاحة والبلاغة ـ وأنظر فى هذا المقام فصل « الجمل وكلماتها » ص ٢٣٦ من كتاب إعجاز القرآن للرافعى .

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآى والسور : ١٩٣/١ .

وللسياق ـ أيضاً ـ دلالته على أن ما أتوا به دون طلب ؛ لأن قولهم : ﴿ هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ يدل على أنهم لم يطلبوا ما أتوا به ولم ينتظروه ؛ لأنه شيء آخر غير معهود لهم . فهو وإن اتفق مع ما رزقوه قوة من قبل فى الجنس إلا أنه يختلف عنه فى النوع ، فشتان ما بين النوعين ، وها من تجليات الله تعالى لهم بنعمه الكثيرة التى لا تنفد ولا تحصى .

[٧] وقال تعالى فى نفى الحرج عن الضعفاء الذين لا يستطيعون الجهاد : ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ (١) .

﴿ وأَتَوْكَ ﴾ يدل المقام والسياق على أن الإتيان لم يكن عن دعوة وتكليف لأنهم ـ رضى الله عنهم ـ رفع عنهم تكليف الجهاد لظرفهم الخاص بهم ، فكان إتيانهم بمحض رغبتهم ، دون أن يطلب منهم ذلك ، فاجتمع فى الفعل (وأتى) الدلالة على السهولة ، وعلى أنه دون طلب أو انتظار .

[٨] وقال تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ (٢) .

﴿ فَأَتَتْ به ﴾ الوجه فى الإتيان بالفعل (أتى) ـ والله أعلم ـ أنه مجيء سهل دون طلب ، فقد كان من تلقاء نفسها بعد أن رأت وعلمت من البشارات والكرامات أنها بخير ، قال أبو حيان : « فأتت به ـ قيل : إتيانها كان من ذاتها .. وقيل : أرسلوا إليها لتحضرى إلينا بولدك ... » (٣) .

والذى نرتضيه هو القول الأول ، وهو أن إتيانها من ذات نفسها ، لأنه لو ساغ أن يطلبوا منها أن تحضر إليهم لما ساغ أن يظن بهم أنهم يرغبون فى ولدها ، ويطلبون حضورها به ، وعليه فالإتيان دون دعوة ، وللسياق دلالته على ذلك أيضاً ـ لما للفاء فيه من دلالة على سرعة الأحداث وتتابعها ، وإسلام الحدث لما يليه مباشرة .. ﴿ ... وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ... فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِى ... فَكُلِى وَاشْرَبِى ... فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ... فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ... ﴾ الآيات وقد اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى عليه السلام ، ويروون عن

---

(١) التوبة : ٩٢ .
(٢) مريم : ٢٧ .
(٣) البحر المحيط : ١٨٦/٦ ، وينظر جامع البيان : ٧٦/١٦ .

ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ « أنه قال : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس ، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبى تحمله ، فكان الحمل والولادة فى ثلاث ساعات من نهار »[1] .

وقوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا ﴾ بالفعل (جاء) لأن ماجيء إليه من الفرية والبهتان صعب مستغرب ، ولا يكون المجيء إلى ما يصعب إلا على وجه من الاستدعاء والدوافع إليه .

[٤] وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[2] .

قوله : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أى إتيانا سهلاً لا صعوبة فيه كما سبق بيانه من أنه من القادر على الفعل جل وعلا ، وهو ـ أيضاً ـ إتيان لا عن طلب ، ولا عن إلزام ووجوب ، وإنما هو محض فضل من الله تعالى .

وللسياق دلالته على انتفاء الانتظار والترقب للزيادة على الموازين بقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ عندئذ ينتظر عدل الله تعالى ، ثم يتفضل الله تعالى على عباده بإكرامهم . بزيادة ما يحتاجون إليه لإكمال موازينهم ، فلله الحمد فى الأولى والآخرة .

وقد يدق المسلك للوصول إلى وجه الإتيان بالفعل (أتى) مع وجود طلب واستعجال للآتى ، وذلك مثل :

[٧] قول الله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] .

فقد يظن بطلان ما قررناه من أن (أتى) يكون عن غير دعوة وانتظار لأن فى السياق ـ هنا ـ طلبا واستعجالاً .

لكن إنعام النظر إلى الآية يصل بنا إلى إدراك اختلاف زمنى الفعلين وجهتهما ؛ لأن المعنى ـ والله أعلم ـ تسهل أمر الله وحصل وعدا فلا تستعجلوه وقوعاً[4] .

فالفاء هنا تفيد ترتب النهى عن الاستعجال على حصول أمر الله تعالى وتحققه

---

(١) ينظر جامع البيان : ٦٥/١٦ الكشاف : ٥٠٦/٢ ، والجامع لأحكام القرآن : ٤١٣٨ .

(٢) الأنبياء : ٤٧ . (٣) النحل : ١ .

(٤) البحر المحيط : ٤٧٢/٥ .

وعداً ، وعلى هذا فالإتيان ليس مترتباً على الاستعجال ؛ لأنه ـ أى الإتيان ـ عليه ، وحاشا لله أن يكون إتيانه بأمره إجابة لدعوتهم .

فأمره وتدبيره ووعده لعباده دون إلزام منهم له ، أو اجتراء على ما تقتضيه حكمته فى خلقه ، وإن كانوا يسيئون باستعجال ذلك ، فهم لا يطلبون الإتيان ، لكنهم يستعجلونه ، وفرق كبير بينهما .

وكذلك يندفع اللبس فيما لو قيل : عبر بالماضى عن المضارع لقرب وقوعه [1] لأن ما يستعجلونه وقوع الأمر ومجيئه ، لا الإخبار بقرب وقوعه الذى هو مدلول المجاز .

[٢] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [2] .

﴿ ائْتِيَا ﴾ الأمر هنا أمر تكوين ، فليس فيه فاصل بين الأمر ونفاذه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلما كانت الدعوة والنفاذ شيئاً واحداً كان الفعل (أتى) بدلالته على السهولة والطاعة والنفاذ هو المناسب فى هذا المقام ، وجاءت الإجابة ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ .

ويدل على إعجاز هذا التناسب فى الآية أنه لو قيل فى غير القرآن الكريم :

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ لأحسنا بتدافع دلالة الكلمتين « جئنا » و « طائعين » لما للأولى من دلالة على صعوبة الحركة ، وكون المجىء إجابة لطلب واستدعاء ، وما للثانية ﴿ طَائِعِينَ ﴾ من دلالة على سهولة الحركة مع مصاحبة الإتيان للأمر ، دون فاصل بينهما .

فإن قيل : الدعوة فى الآية غير خفية ، فيكون الإتيان أيضاً عن دعوة كالمجىء . قلنا : إنما أثبتنا أن المجىء يكون عن دعوة دون الإتيان ، وأردنا به كونه مرتباً عليه ترتب المعلول على العلة ، أما والدعوة فى الحقيقة هى الإتيان بهما ، فليس الإتيان عن دعوة ؛ لأنهما بمعنى واحد ، ذلك أننا نقصد بالدعوة أن تسبق المجىء دواعيه .

ومما لا شك فيه أن الإتيان طوعا لا يكون عن دعوة ، فالإخبار بإتيانهم كذلك يفيد أن الإتيان لم يكن للدعوة وإن كان مصرحا بها ، فصدور الفعل فى أصله دون دعوة ، بصرف النظر عن وجودها ، والله أعلم .

---

(١) البحر المحيط : ٤٧٢/٥ .

(٢) فصلت : ١١ .

[٣] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (١) .

« الداخر » الصاغر الراغم ، والمعنى أنهم يأتون الموقف بعد النفخة الثانية إتيان فزع وانقياد إلى الله تعالى ، إذ لا يكون منجى منه إلا إليه (٢) .

والتناسب بين الفعل « أتى » وقيده « داخرين » المبين حال ذلتهم ـ جلى لا يخفى ـ فحسبهم للإتيان ما هم فيه من الفزع والهوان ، والهروب مما هم فيه ، ومما هو زيادة فى تقرير ما أثبتناه ، من أن الإتيان يكون طواعية دون دعوة أو إلزام ، وأن المجىء يكون على جهة الرغبة والانتظار ـ التدبر فى الآيات الآتية :

[٩] قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

[١٠] وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (٤) .

[١١] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ، قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

الآيات فى السور الثلاث تتحدث عن مجىء موسى عليه السلام إلى ما رآه وظنه ناراً رجاء أن يأتى منها بما يقضى به بعض حاجاته والوجه فى الإتيان بالفعل (جاء) فى

---

(١) النحل : ٨٧ .
(٢) ينظر الكشاف : ١٦١/٣، وجامع البيان : ٢٠/٢٠
(٣) النحل : ٧ ، ٨ .
(٤) طه : ٩ ، ١٠ ، ١١ .
(٥) القصص : ٢٩ ، ٣٠

سورة النمل ـ والله أعلم ـ أن المجيء عندئذ كان مطلوباً لقضاء حاجة والإتيان بما يصطلى به هو وزوجه فهو مجيء فيه جهد ومشقة ، وهو لطلب وحاجة .

أما الإتيان بالفعل (أتى) فى سورتى طه والقصص فلتصوير مشهد آخر من القصة ، وعرض حدث لم يكن مطلوباً ولا متوقعا عند موسى عليه السلام ، لأنه بعد أن طلب النار ، وجاء إلى المكان الذى آنسها فيه ، وتكشفت له الحقيقة بأن ما ظنه ناراً ليس بنار ، دخل الوادى المقدس الذى تجلى له فيه النور ، هذه الحركة كانت حركة إتيان لأنه لمْ يكن يطلبها عند ترك زوجته ، وليس حركة مجيء ، كالحركة عندما ترك زوجه ، وجاء يطلب النار .

وشواهد المجيء الواقع لدعوة وطلب كثيرة فى القرآن الكريم .

[١٥٣] قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ، قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

الآية فى سياق عرض قصة موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل عندما أمرهم بذبح بقرة بأمر الله تعالى ، فألحوا عليه بأسئلة كثيرة ، منها قولهم : « ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » فأجاب طلبهم بالآية .. والوجه فى الإتيان بالفعل « جاء » أنه عن طلب ، بل وإلحاح فيه .

والمجيء فى الآية بالحق ، لكن عندما كان الإتيان بالحق دون طلب ، وعلى سبيل التيسير والتفضيل ، دون أن يكون ثمة انتظار ـ جاء الفعل « أتى » فى هذه الآية :

[١٥٥] قال تعالى ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢) .

أخبرت الآية عن الإتيان بالحق ، كالآية السابقة ، لكن فرق ما بينهما أن الإتيان هنا لم يسبق بما يدل على الطلب ولم يكن ثمة انتظار له ، فالآيات التى سبقت هذه الآية قررت لهم الوحدانية عن طريق توجيه بعض الأسئلة عن رب السماوات والأرض ، ورب العرش العظيم ، وعن من يجير ولا يجار عليه ، إلى أن تأتى الجواب الحق وتيسر لهم إثبات وحدانية الله تعالى .. دون أن يطلبوا ذلك أو ينتظروه .. فضلاً عن إعراض الكثير من الخلق ، ومن أجل ذلك كان الوجه فى هذه الآية ـ والله أعلم ـ الإتيان بالفعل « أتى » دون « جاء » .

---

(١) البقرة : ٧١ .

(٢) المؤمنون : ٩٠ .

وفى قصة موسى عليه السلام ـ مع فرعون ، وطلبه الإتيان بالسحرة من كل مكان ، ليناجزوا موسى عليه السلام ـ يأتى الفعل « جاء » عند الإخبار بإجابتهم الدعوة ، مراعاة لهذا الوجه الذى ذكرناه .

٢٢٥- قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١) .

٢٢٦- وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ (٢) .

٢٢٧- وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (٣) .

واضح فى الآيات أن مجيء السحرة كان عن طلب واستدعاء من فرعون وإجابة له ، فكان هو الوجه فى الإتيان بالفعل (جاء) .

وبتدبر الآيات فى هذه القصة نرى من وجوه الإعجاز القرآنى عجبا ! فالفعل (جاء) يأتى عند طلب فرعون مجيء السحرة وانتظارهم ، لكن القرآن الكريم يلفت باللفظة الموحية إلى أن هذا المجيء ما هو إلا ضرب من العناد ، والمماطلة ، والكفر ، ورفض للآيات البينات التى جاء بها موسى عليه السلام ؛ وذلك بالإتيان بالفعل « أتى » للدلالة على أن إتيان فرعون بما أتى به ، لا يؤبه به ، وليس موضع ترقب وانتظار ـ فى الآية الآتية :

٢٢٨- قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ (٤) .

فإتيانه غير مرغوب ، ولا قيمة له بحيث يكون محل اهتمام ، ولسياق الآية التى جاءت بعد ذلك تأكيد على ذلك ، قال تعالى :

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ ، لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ، وَقَدْ خَابَ

---

(١) الأعراف : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ (٢) يونس : ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) الشعراء : ٤١ . (٤) طه : ٦٠ .

مَنِ افْتَرَى ﴾ [1] ، أى ويلكم فيما افتريتم وجمعتم من كيد ، كان أولى بكم أن تتركوه وتستجيبوا مخافة عذاب الله ، والله أعلم .

وكما يكون المجيء عن دعوة حاضرة قد يكون عن دعوة وموعد سابقين .

٢٢٩- قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] .

المجيء لدعوة سابقة وفى موعد محدد كما أخبرت الآية التى قبل هذه ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [3]، فالمجيء لميقات محدد زمانا ومكانا ، وواضح ما فيه من تبعة التكليف وهيبة الموقف ، وكذلك من خبر هذا الوعد :

٢٣٠- قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى ﴾ [4] .

وهكذا يؤتى بالفعل (جاء) عند إنفاذ وعد سابق ، ومن ذلك أيضاً .

[٦٠] قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [5] .

[٦١] قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [6] .

---

(١) طه : ٦١ .
(٢) الأعراف : ١٤٣ .
(٣) الأعراف : ١٤٢ .
(٤) طه : ٤٠ .
(٥) الإسراء : ٥ .
(٦) الإسراء : ٧ .

[٣٩] وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (١).

[٦٢] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (٢).

[٥٩] وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ (٣).

بهذه الشواهد نكون قد استوثقنا من الوجه الذى ذكرناه من أن المناسب لما يكون موعودا به منتظرا ـ الفعل « جاء » ويؤكد ذلك ـ أيضاً ـ أننا نلحظ فى آية الإسراء السابقة (١٠٤) أنه قد أتى بالفعل « جاء » مرتين لأنه المناسب فى هذا الموضع ؛ ولو كان الفعلان متساويين فى الدلالة والاستعمال لتنوعت بهما العبارة فى الآية الكريمة .

ولا يتعين أن تكون الدعوة إلى المجىء ممن جىء إليه ، بل يصح أن تكون من آخر ، مثال ذلك :

٢٣١- قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ، قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (٤).

مجىء الرسول إلى يوسف عليه السلام بناء على طلب الملك وأمره ، وليس لطلب ممن جىء إليه ، وهو يوسف عليه السلام .

٢٣٢- قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥).

الفعل « جاء » الأول كان بناء عن طلب ، لأن فى الكلام إيجازاً والتقدير : فذهبنا إلى أبيهما فقصتا عليه أمر الذى أسرع بالسقى لهما فأمر إحداهن أن تدعوه ليجزيه أجر ما سقى لهما ، فجاءته إحداهما .. فالمجىء هنا ليس إجابة لطلب من جىء إليه ، وهو موسى عليه السلام ، وإنما لطلب شعيب عليه السلام ، هذا فضلا عما للسياق من دلالة

---

(١) الإسراء : ١٠٤.
(٢) الكهف : ٩٨ .
(٣) الشعراء : ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٤) يوسف : ٥٠ .
(٥) القصص : ٢٥ .

على أن موسى قد اتجه إلى ربه ، داعيا أن يرزقه خيراً قائلا : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ من خير فقير ﴾ وفى التعبير بقوله « أنزلت » بمعنى « تنزل » دلالة على شدة حاجته وبالغ رجائه ، فأجاب الله دعاءه ، وهيأ له مجيء الفتاة ، وللفاء فى قوله « فجاءته » دلالة على سرعة إجابة المولى دعاءه .

أما « جاء » فى قوله تعالى : « فلما جاءه » فإنه إجابة لدعوة شعيب له ، المصرح بها فى قوله تعالى حكاية لقول الفتاة : « إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ... » والله أعلم .

ومما يكون مجيئه منتظراً لكونه متيقن الوقوع الموت والأجل ، فيكون المناسب له إسناد الفعل « جاء » إليه دون الفعل « أتى » من شواهد ذلك :

[٦٣] قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (١) .

وقد جاءت جميع شواهد الموت بإسناد الفعل « جاء » إليه (٢) ، ما عدا شاهداً واحداً ، قد صاحبه من قرائن الأحوال والسياق ما يدل على الغفلة عن وقوع الموت ، وعدم انتظاره وهو :

٢٣٣- قول الله تعالى حكاية لما يقوله المجرمون يوم القيامة : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (٣) .

« اليقين » الموت ، واللفظ صريح فى أنه متيقن الوقوع ، فهو حق يشاهد كل ساعة ، ويقين لا يمارى فيه أحد ، فكان يناسبه الفعل « جاء » لكن لما كانوا يستمرون على التكذيب بيوم الدين وينغمسون فى الدنيا وملذاتها صاروا كأنهم يعتقدون الخلود فى الدنيا ، وينكرون الموت ، فناسب ذلك الإتيان بالفعل « أتى » للدلالة على تسهل الموت وإتيانه لهم وهم لا يشعرون ، وفى هذا من الدلالة على أن الإتيان لا يكون منتظراً متوقعاً .

ومما يكون مجيئه متوقعاً منتظراً لكثرة وقوعه فى حياة الناس أو تلبسهم به - مجيء الحسنة والسيئة .

---

(١) الأنعام : ٦١ .
(٢) ثم ذكر هذه الشواهد فى المبحث الأول من رقم ٦٣ إلى رقم ٧١ .
(٣) المدثر : ٤٦ ، ٤٧ .

٢٣٤- قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذه ، وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ، أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

قال الزمخشرى فى معرض بيان علة مجيء « إذا » وتعريف الحسنة : « لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب ، لكثرة اتساعه » (٢) .

وعليه فالوجه إسناد « جاء » للحسنة لأن ما ووقوعه كالواجب يكون متوقعا منتظراً .

٢٣٥- وقال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ، وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

٢٣٦- وقال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ، وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

٢٣٧- وقال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

ومما يكون مجيئه منتظراً مطلوباً لكونه محل رجاء ومرغوباً لا يغيب عن البال ـ النصر والفتح ، لذا فالوجه فيه إسناد الفعل « جاء » إليه .

٢٣٨- قال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

فالوجه فى الإتيان بالفعل « جاء » مسندا إلى الفتح لكون الفتح منتظراً مطلوبا وللسياق دلالته ـ أيضاً ـ على هذا الانتظار فى قوله تعالى ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أى إن تطلبوا الفتح أيها المعاندون ، فقد جاء ولكنه فتح نصر للمؤمنين ، وهزيمة ودحر للكافرين .

٢٣٩- وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ

---

(١) الأعراف : ١٣١ . (٢) الكشاف : ١٠٦/٢ . (٣) الأنعام : ١٦٠ .
(٤) النمل : ٨٩ ، ٩٠ . (٥) القصص : ٨٤ . (٦) الأنفال : ١٩

النَّاسِ كَعَـذَابِ اللهِ ، وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

ولكون النصر فى الآية من نوع خاص فيه غنيمة فهم ينتظرونه ، لذا أتى معه بالفعل « جاء » ولكونه نوعاً خاصاً لا يتحقق دائماً أتى معه بأداة الشرط « إن » والله أعلم (٢) .

٢٤٠- وقال تعـالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) .

وهكذا فجميع الآيات التى جاء فيها النصر أسند إليه الفعل « جاء » ما عدا آية واحدة اقتضى مساق الآية أن يؤتى فيها بالفعل « أتى » وهى :

[٩٣] قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤) .

فالوجه فى الإتيان بالفعل « أتى » فى هذه الآية ـ والله أعلم ـ ما فى سياق هذه الآية من دلالة على ترك الرسل العجلة فى طلب النصر ، وانتظاره بصبر وتحمل ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ففى هذا السياق دلالة واضحة على ما ذكرنا من تحمل التكذيب والأذى ، والصبر عليه صبراً مغيى بالنصر موصولاً به ، فتسهل لهم النصر ، وتحقق لهم وعد الله « إن الله مع الصابرين » و « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا » ثم هم نفر مخصوص من الرسل لهم مزيد عزم وصبر ، دل على ذلك تنكير « رسل » .

لكننا إذا نظرنا إلى سياق فى الآية الآتية وجدناه شيئاً آخر :

٢٤١- وقال تعـالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) العنكبوت : ١٠ .

(٢) ينظر « أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه فى القرآن الكريم رسالة دكتوراه للمؤلف مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ص ٨١ ، ٢١٧ .

(٣) النصر : ١ . (٤) الأنعام : ٣٤ . (٥) يوسف : ١١٠

الحال هنا مستدعية للنصر طالبة له ، والسياق قد تضمن ما يدل على أنهم عليهم السلام ـ قد بلغ بهم اليأس حدًا استبطئوا معه النصر ، بعد أن فقدوا الأمل فى أن يتبعهم أحد ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ... ﴾ (١) فإذا بالنصر الذى يلحون فى طلبه ، وينتظرونه مستصرخين متلهفين يقع ، ويتحقق لهم ، فالوجه فى الإتيان بالفعل « جاء » فى الآية أنه المناسب لما تضمنه السياق من دلالة على الترقب والانتظار ، والله أعلم .

دلالة السياق على انتظار المجيء :

رأينا فى الشاهدين السابقين كيف ارتبط الإتيان بالفعلين :

« جاء وأتى » بالسياق الذى جاءا فيه ، وتبين لنا أن استشفاف ما توحيه قرائن الأحوال والسياق ، وما تستدعيه من التراكيب والألفاظ ، والوصول إلى فقه خصائص النظم القرآنى ـ تبين أن ذلك يحتاج إلى حس رهيف ، وتأمل دقيق .

وفى الشواهد الآتية نرى كيف تبعث قرائن الأحوال فى النفس طلب الفعل وانتظار وقوعه .

[٢٠] قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (٢) .

المقام هنا للحديث عن علم الله تعالى وحكمته ، والإعلام بأنه لو كتبت كلمات الله بماء البحر لنفد ماؤه دون أن تنفد الكلمات ؛ لسعة علم الله وعدم الإحاطة به ، وهذا المقام يستلزم أيضاً نفى نفاد الكلمات ولو جيء بمثل ماء البحر مدداً متواصلاً .

فالوجه فى الإتيان بالفعل « جئنا » ـ والله أعلم ـ استدعاء مقام الإخبار بعدم نفاد الكلمات ولو جيء بمثل البحر مدداً له ، ويستدعيه أيضاً مساق الكلام ففى الآية التى قبل هذه الآية إخبار باستمرار الحياة فى الجنة والخلود فيها للذين آمنوا ، فهو سياق بيان عدم نفاد فضل الله ونعمه ، وإن من له النعم الكثيرة التى لا تنفد له الحكمة الباقية التى لا تحيط بها العقول ، ولا يحصرها بالكتابة قلم ولو جيء بأمثال البحر مداداً .

---

(١) البقرة : ٢١٤ (٢) الكهف : ١٠٩

٢٤٢- وقال تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ، فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١).

تتحدث الآيات عن أهل النفاق الذين يسارعون فى الكفر ، وعن اليهود الذين يسمعون الكذب على الله ورسوله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فحالهم حال المتردد بين الذهاب هناك مرة ، والمجيء هنا أخرى ، وهذا هو الوجه فى الإتيان بالفعل « جاء » لكونه منتظرا متوقعاً ، فى حياة هؤلاء الناس ، والله أعلم .

٢٤٣- وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

الآية فى مقام الحديث عن مجيء الذين يؤمنون بآيات الله إلى رسوله ﷺ فالمجيء متوقع منتظر ، وللسياق دلالته ـ أيضاً ـ على ذلك ؛ فقد جاء فى الآية التى قبل هذه الآية نهى الله لرسوله عن طرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، فهؤلاء لهم حركة مجيء إلى الرسول ﷺ ، وهو أمر معتاد فى حياة الرسول والمؤمنين به .

٢٤٤- وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

الآية فى سياق الحديث عن الذين آمنوا بربهم من المهاجرين والأنصار ومن يدخلون بعدهم فى دين الله أفواجاً على امتداد الأيام ، فتحدثت الآيات عن المهاجرين فى قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ .... ﴾ الآية ٨ ثم عن الأنصار فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ .... ﴾ الآية ٩ .. هذا التتابع فى بيان حال هؤلاء يستدعى بيان حال أقوام يجيئون بعدهم فجاءت الآية ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ ... ﴾ فالمجيء فى هذا السياق وفى بيان حال هؤلاء متوقع منتظر . وهذا هو الوجه فى الإتيان بالفعل « جاء » وهو كونه متوقعاً منتظراً ، والله أعلم .

---

(١) المائدة : ٤٢ . (٢) الأنعام : ٥٤ . (٣) الحشر : ١٠ .

٢٤٥- وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١).

تشبه الآية الكريمة أعمال الكافرين فى عدم نفعها ، والرجوع منها بغير طائل ، بالسراب فى الصحراء يظنه الظمآن ماء ، فلا يلبث بعد طلبه إلا أن يرجع خائباً ، فمآلهما الخسران فى سعيهما .

والآن قد طرحت فى نفس السامع مرأى هذا السراب ، وأن الرائى له ظمآن ، يحثه ظمؤه إلى حسبانه ماء ـ كل هذه استدعاءات سياقية تجعل المجىء منتظرا ، وأن يكون غاية هذا الحسبان ، وسبق الفعل « جاء » بالأداة « حتى » وسوق ذلك فى معرض الحاصل المحقق ؛ بجعله فى سياق أداة الشرط « إذا » لتدل على الجزم بالمجىء .

٢٤٦- وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٢).

تعميم الحكم بإرسال رسول إلى كل أمة ، لا يخفى معه انتظار كل أمة لرسول يأتى إليها لهدايتها ، وهذا هو الوجه فى الإتيان بالفعل « جاء » فى الآية ، وفى جميع الآيات المخبرة بمجىء الرسل وكذلك فى الآيات المخبرة بمجىء الآيات التى هى حجج الرسل عند مجيئهم ، ما عدا لبعض الشواهد التى جاء فيها الفعل « أتى » وذلك لنكتة ذكرناها ثمة فى المبحث الأول .

[١٠٠] وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّن أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاَءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣).

السياق فى هذه الآية كالسياق فى الآية التى سبقت ـ يتضمن الإخبار ـ ببعث شهيد فى كل أمة ، وهذا ولا شك يطرح فى النفس ترقبه وانتظار مجيئه ، لذا كان الوجه الإتيان بالفعل « جاء » دون الفعل « أتى » .. والله أعلم .

وهكذا كان السياق القرآنى العام لآيات الرسل دالا على انتظار مجيئهم وترقبه ، ومن هنا كان الفعل المسند إليهم ـ كما قلنا ـ هو الفعل « جاء » .

---

(١) النور : ٣٩ . (٢) يونس : ٤٧ . (٣) النحل : ٨٩ .

٢٤٧- وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ، كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ، فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

السياق ، واضح الدلالة ـ كالآيات السابقة ـ على مجيء الرسل وصيرورته منتظراً مترقباً ، لذا كان الفعل « جاء » هو المناسب له .

٢٤٨- وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

سياق الآية يتضمن البشارة بمجيء المصطفى ﷺ ، فدلالة ذلك على انتظار المبشر به ، وشدة ترقبه لا تخفى ، وهو مجيء له شأنه ، وخطره ، وجلاله ، فليس غريباً أن يكون الكون كله متطلعاً لنور مقدمه عليه الصلاة والسلام .

٢٤٩- وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

ما تضمنه السياق من إقسامهم يدل على أنهم ـ ظاهراً ـ ينتظرون ما أقسموا عليه ؛ وهذا هو الوجه فى الإتيان بالفعل « جاء » فضلاً عن كونه مجيئاً ذا شأن وأهمية كما هو ظاهر حالهم .

والفعل « جاء » الثانى فى سياق إجابة ما يطلبون وينتظرون .

ونظيرها أيضاً :

[١١٥] وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُم نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ (٤) .

والوجه فى هذه الآية كالوجه فى الآية السابقة .

٢٥٠- وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ

---

(١) المؤمنون : ٤٤ . (٢) الصف : ٦ . (٣) الأنعام : ١٠٩ (٤) فاطر : ٤٢ .

أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

٢٥١- وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٢) .

٢٥٢- وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

٢٥٣- وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (٤) .

السياق فى الآيات السابقة سياق سوق وعرض ، وإنفاذ أمر الله القهار ، فالمجىء فيه مطلوب منتظر .

ولقصص القرآن الكريم سياقاته العامة التى تتتابع فيها الأحداث ، ويكون للسامع لها والعارف بها انتظار لمجيئها ووقوعها من فاعليها ، فمن ذلك قصة يوسف عليه السلام .

٢٥٤- قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (٥) .

الفعل « جاء » هنا واقع فى سياق عرض أحداث القصة المشار إلى قصتها على الرسول ﷺ بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ من قَبْلِه لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٦) .

فالمجىء هنا متوقع منتظر بعد إخبار الله تعالى نبيه بأنه سيقص عليه فى الآيات فى السورة ، وكذلك المجىء فى الآيات الآتية التى تسرد أحداث القصة :

٢٥٥- قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧) .

٢٥٦- وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) الزمر : ٧١ .
(٢) الزمر : ٧٣ .
(٣) فصلت : ٢٠ .
(٤) سورة ق : ٢١ .
(٥) يوسف : ١٦
(٦) يوسف : ٣
(٧) يوسف : ١٩ .
(٨) يوسف : ٥٨ .

٢٥٧- وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (١).

٢٥٨- وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وهكذا لم يأت فى قصة يوسف الفعل « أتى » بلفظ الماضى ؛ وذلك للوجه الذى ذكرناه من كون الفعل « جاء » يؤتى به عند انتظار الفعل ووقوعه ، ومعلوم أن تتابع حركة الأحداث فى القصة منتظر مترقب .

ومن ذلك قصة رسول الله ﷺ مع ابن أم مكتوم :

٢٥٩- قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ (٣).

٢٦٠- وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ (٤).

وكذلك قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد وبلقيس ملكة سبأ ، لم يأت فيها إلا الفعل « جاء » ولم يأت الفعل« أتى » .

٢٦١- قال تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (٥).

٢٦٢- وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ، فَمَا آتَانِ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٦).

٢٦٣- وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (٧).

وكذلك فى قصة إبراهيم ولتتابع الأحداث فى سياقها القرآنى أتى فيها بالفعل (جاء) لكونه متوقعاً منتظراً فى هذا السياق .

---

(١) يوسف : ٨٨ . (٢) يوسف : ٩٦ . (٣) عبس : ١ ، ٢ .
(٤) عبس : ٨ ، ٩ ، ١٠ . (٥) النمل : ٢٢ . (٦) النمل : ٣٦ .
(٧) النمل : ٤٢ .

٢٦٤- قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (١) .

٢٦٥- وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (٢) .

٢٦٦- وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (٣) .

[١٠٤] وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٤) .

٢٦٧- وقال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ (٥) .

وهكذا فحركة المجيء متوقعة منتظرة في إطار أحداث القصة ، لذا كان الوجه الإتيان بالفعل « جاء » .

وكذلك الوجه في الإتيان بالفعل « جاء » في سياق عرض أحداث تحزب اليهود والكفار على رسول الله والمؤمنين .

٢٦٨- قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُم مِن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ (٦) .

وكما تساوق الإتيان بالفعل « جاء » مع سوق الكلام ومقامه في الشواهد السابقة ، فإنه يتعين- أيضاً - الإتيان بالفعل « أتى » في سياقات هو أشكل بها من الفعل « جاء » من ذلك :

---

(١) هود : ٦٩ .
(٢) هود : ٧٤ .
(٣) الحجر : ٦٧ ، ٦٨ .
(٤) العنكبوت : ٣١ .
(٥) الذاريات : ٢٦ .
(٦) الأحزاب : ٩ ، ١٠ .

[٧] قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ، وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا * وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُواْ يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ ﴾ (١) .

« فأتاهم الله » أى أمره بالعذاب والتنكيل والإخراج من ديارهم ، هذا الإتيان لم يكن منتظرا ، ولا متوقعا عند الكافرين ، بل لم يمر بعقول المؤمنين أنهم سيخرجون من ديارهم .

هذه الحال بما فيها من هذا الظن الذى جرت الأمور على خلافه ، نزل فيها مجيء العذاب والتنكيل بهم بما فيه من صعوبة منزلة الإتيان السهل فلم يؤت بالفعل « جاء » وإنما أتى بالفعل « أتى » لمناسبته لتلك الحال . وتساوقا مع ما تضمنه الكلام من قوله : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ وقوله: ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ ﴾ وقوله : ﴿ مِّنَ اللهِ ﴾ يدل على شدة ارتكاسهم فى الجهل والكفر ، وتزداد دلالة السياق على سهولة هذا الإتيان وضوحاً بقوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أى من حيث لم يظنوا الإتيان من جهته .

وهكذا نجد الفعل « أتى » يؤتى به فى كل سياق يدل على أن من جيء إليه مجيئا صعباً لم يكن يشعر به لذا نلحظ أن تعقيب الآيات وتذييلها بقوله « من حيث لا يشعرون » لم يأت معه إلا الفعل « أتى » ماضيا كان ، أو مضارعاً ، وذلك فى الآيات الآتية :

٢٦٩- قال تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

٢٧٠ - وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) .

وبصيغة المضارع فى الآيات الآتية :

---

(١) الحشر : ٢ . (٢) النحل : ٢٦ . (٣) الزمر : ٢٥ .

٢٧١- قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١).

٢٧٢- وقال تعالى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢).

٢٧٣- وقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٣).

٢٧٤- وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤).

فالإتيان فى هذه الشواهد صعب ، لكنه نزل منزلة ما هو سهل لكونه يقع دون انتظار أو توقع بقرينة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقد يكون المجيء الصعب المحقق واقعاً فى سياق « إن » التى تدل على الشك والاحتمال ، قصداً لبيان ما يترتب على الشرط دون نظر إلى كونه محقق الوقوع - فيؤتى بالفعل « أتى » دون الفعل « جاء » مراعاة لهذا السياق .

[٨٥] قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥).

مجيء العذاب محقق الوقوع ، لكنه وضع باعتبار قيده « بغتة أو جهرة » فى سياق « إن » فصار باعتبار احتمالهما كأنه غير متعين الوقوع ؛ لذا ناسبه الفعل « أتى » والله أعلم .

[٨٤] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦).

الموضوع فى سياق « إن » هنا -خلافا للآية السابقة - إتيان العذاب وإتيان الساعة ، أى على فرض وقوع أحد الأمرين اللذين ينتظران كل عاص أخبرونا ماذا تفعلون ؟

---

(١) النحل : ٤٥ . (٢) الشعراء : ٢٠١ ، ٢٠٢ . (٣) الزمر : ٥٥ .
(٤) الزخرف : ٦٦ . (٥) الأنعام : ٤٧ (٦) الأنعام : ٤٠

فمجيء الساعة وإن كان محققا لم يؤت به فى هذا السياق لبيان تحققه ؛ لكن لبيان ما يترتب عليه ؛ وعلى عذاب الله ؛ على فرض وقوع أحدهما ، والتسوية بينهما فى الجواب [1] ، فالغرض الرئيسى هو بيان أنهم لن يتجهوا إلا إلى الله تعالى ، على فرض وقوع أحدهما ، لا الإخبار بمجيء الساعة ، وهذا هو الوجه فى الإتيان معهما بالفعل « أتى » مع أنهما متوقعان ؛ ومجيئهما صعب ؛ والله أعلم .

ولذلك لما كان الحديث عن وقوع الساعة على سبيل اليقين ، فى سياق الحديث عن الأمور الغيبية المجزوم بها – لأنه من الله جل وعلا – فإنه أتى معه بالفعل « جاء » فى الآية الآتية :

[٣٨] قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [2] .

فإنه لما كان الحديث عن الساعة تقريراً لتيقن مجيئها ناسبه الإتيان بالفعل « جاء » وفى سياق أداة الشرط « إذا » التى من شأنها أن تكون مع المجزوم به.

وبهذه الآية يتفطن إلى كلمة « بغتة » لا يتعين معها الإتيان بالفعل « أتى » كما هو الحال مع جملة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ إذ إن المجيء بغتة يمكن أن يكون لقوم يتوقعون وقوعه ؛ لكنهم لا يعرفون وقته ، أما جملة « من حيث لا يشعرون » فتكون مع من لا يوقن بوقوع الفعل .

وقد نبه الزمخشرى إلى ذلك عند تفسيره قول الله تعالى (الشاهد ٢٧٣) :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [3] .

قائلا : « إن قلت: أما أدى قوله: « بغتة » مؤدى قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فيستغنى عنه ؟ قلت : لا ، لأن معنى قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ : وهم غافلون ، لاشتغالهم بأمور دنياهم ؛كقوله تعالى : ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون .. » [4] .

بهذا نكاد نكون وفينا القول فى وثاقة الإتيان بأحد الفعلين بالمقام والسياق .

---

(١) تنظر : أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط (إن وإذا ولو) ومواقعه فى القرآن الكريم ص ١٨٣ رسالة دكتوراة مخطوطة بمكتبة كلية اللغةالعربية بالقاهرة ، للمؤلف .

(٢) الأنعام : ٣١ (٣) الزخرف : ٦٦ (٤) الكشاف : ٤٩٥/٣ .

الفرق بين نفى المجىء ونفى الإتيان :

إذا كان قد تقرر بما سبق أن الفعلين : جاء وأتى يفترقان من حيث كون المجىء صعباً وعن دعوة وانتظار ، وكون الإتيان سهلا دون طلب وانتظار – فإن الإتيان بهما على جهة الإثبات يكون لإثبات معنى كل منهما بهذه الخصوصية التى تقررت .

وكذلك الإتيان بهما منفيين يكون على معنى نفى وقوع فعل له شأنه وخطره ، وكان متوقعاً ، عند نفى المجىء ، ونفى فعل فيه سهولة دون أن يكون محل انتظار أو توقع عند نفى الإتيان ، ذلك لأن طريق النفى طريق الإثبات ، ويتضح ذلك بالشواهد الآتية :

[١٢٠] قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

الإتيان فى أول الآية بالفعل « جاء » لأن السياق القرآنى العام دل على هذا المجىء وانتظاره ، وقد كان أهل الكتاب يعلمون ذلك من التوراة وكانوا يذكرونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل مبعثه وينعتونه ، وينتظرون مقدمه ، ويستفتحون به على الذين كفروا ، لعلمهم بصدق إخبار الله لهم به ، ثم يأتى الفعل منفياً فى قوله : « ما جاءنا » قطعاً للطريق عليهم أن يقولوا : انتظرنا مجيئه وطلبناه فلم يأت إلينا . ولم يأت الفعل « أتى » ـ والله أعلم ـ لأن محاجتهم لا تكمل ولا تقوى إلا بنفيهم المجىء ، لا بنفى الإتيان ؛ لأنهم عند المحاجة سيعالنون أنهم انتظروه ولم يأت إليهم ، وهو ما يدل عليه قولهم : « ما جاءنا » أما لو قالوا : ما أتانا ، فإنه يكون لنفى تسهيل إتيان النبى إليهم ، دون أن يفيدوا أنهم كانوا يطلبونه ، وينتظرونه ، قال الزمخشرى : « فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم » (٢) ، لكن يبقى أن يبين بأنهم انتظروه ورغبوا فيه ، ليكمل احتجاجهم ، وهو ما يدل عليه الفعل « جاء » .

ثم جاء الفعل للمرة الثالثة فى قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ إثباتاً لهذا المجىء ، وتأكيداً له ، وإعلاما بأن ما طلبوه وانتظروه قد جاءهم ، فليس لهم أن يتعللوا بأعذارهم الكاذبة . والله أعلم .

أما مجىء الفعل « أتى » منفياً ، فإنه يفيد غير ما يفيد ، « جاء » منفيا ؛ لأن المعنى سيكون على نفى تسهل المجىء ، دون الدلالة على معنى الترقب والانتظار ، وذلك فيما يأتى :

---

(١) المائدة : ١٩ (٢) الكشاف : ٦٠٢/١ .

[١٤] قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

[١٥] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢).

« ما أتاهم » ـ فى الآيتين ـ لتنفى تسهل مجيء نذير لمن كان قبلهم ، وإعلام من الله ـ أنه سهل لهم بك ما لم يسهله لغيرهم دون انتظار منهم لك ، فأولى بهم أن يؤمنوا ، ذلك ـ كما قلنا ـ لأن طريق النفى طريق الإثبات ، فعند إثبات « أتى » بكون المجيء سهلاً ، وعند النص يكون لنفى تسهل المجيء والله أعلم .

[١٥٩] وقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (٣).

الآية للإخبار ، بأنهم ما قابلوا تسهيل الله لهم مجيء الرسل إليهم إلا بالنكران والمخالفة ، وإتهام الرسل بالكذب .

وللسياق دلالته على حالهم من الكراهة والبغضاء للرسل وعدم الرغبة فيهم ، لذا ناسبه الفعل « أتى » .

ومما يؤكد وضوح الفرق بين نفى المجيء ، ونفى الإتيان هذه الآية:

[١٥٤] وقال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤).

الفعل هنا بلفظ « جاء » منفيا ، خلافا للآيات السابقة ، ذلك لأنهم عندما نفوا المجيء ببينة ، قصدوا الدلالة على أنهم كانوا يتوقعون مجيئه بشيء ذى بال ، انتظروه منه ، بعد أن وجه لهم نصائحه التى جاءت فى الآيات التى قبل هذه الآية ، من قوله لهم : أعبدوا الله ما لكم من آله غيره ، وإتهامه لهم بالافتراء ، وأنه لا يسألهم أجراً .. إلخ مع كل ذلك ادعوا أنه لم يجيء بما طلبوه وانتظروه ، وأعلنوا بقاءهم على عبادة آلهتهم ، ومكثوا فى ضلالهم ، والله أعلم .

* * *

(١) القصص : ٤٦ . (٢) السجدة : ٣ . (٣) الذاريات : ٥٢ . (٤) هود : ٥٣ .